الشيخ الخضري

تحوّل الكاتب الى كتاب ورجع المفكّر الى فكرة واصبح من كان يُدارسُ الناس فاذا هو درسٌ يُذكر او يُنسى ، وتناول التاريخ عالماً من علمائه ، فجعلهُ نبأً من أنبائه ، وكان بينهم فوضعهُ في بنائه ، وقيل مات الشيخ الخضري

آه لو يرجع انسان واحد من طريق الموت التي اولجها هذه النقطة الصغيرة المسماة بالكرة الارضية وآخرها حيث تجد كلمة «الآخر» بلا معنى لا محدود ولا مظنون . وآه لو استطعنا ان نتكلم عن الميت كأنهُ حيّ بيننا ونحن كثيراً ما نتكلم عن الحيّ كأنهُ مات من زمن ! إني لأكتب هذه الكلمات وكأني انظر الى وجه ابي رحمهُ الله واشهد ذلك السمت العجيب وذلك الوقار الذي يغمر النفس هيبةً وجلالاً وأستروح ذلك الحب الذي هو احد الطرق الثلاث المنتهية من الارض الى السماء ومن المخلوق الى الخالق والمبتدئة من السماء الى الارض ومن الخالق الى المخلوق : طريق الامّ وطريق الاب وطريق الانسانية . أكتب وكأن يداً من وراء المادة تمسح على قلبي فاجد ثقلةً وفترةً وأستشعر حنيناً وشوقاً واحسُّ هذا القلب ينازعني الى قوم ذهبوا بلا رجعة وفارقوا بلا وداع وغابوا عنا بلا خبر . دخلوا الى انفسنا ولا نحو بهم . وخرجوا منها ولا نخلو منهم فما دخلوا ولا خرجوا وهذه هي الحيرة التي يتركها الميت العزيز للحي المتفجع كما يعرف بامواته ماهو الموت

***

كنا منذ بضع وثلاثين سنة في مدينة المنصورة وكان ابي يومئذٍ كبير قضاة الشرع في ذلك الاقليم ، فاني لالعب ذات يوم في بهو دارنا اذ طرق الباب فتحت الفتح فاذا انا بشيخ لم يبلغ سنّ العمامة[1] ولم اميز من هيئته اهو طالب علم او هو عالم فكان حدثاً لكنهُ يتسم بسمة الجد ، ورأيتهُ لا تمرح به الجبة كالطلبة وكان في يده مجلد ضخم لو نطق لقال لهُ دعني لمن هو اسنّ منك فما قدّرتهُ يزنُ عشرين مجلداً من مثله . ونظر اليّ نظرة كأني لا ازال اراها في عينه الى الساعة فسلمت عليه فقال اين الشيخ يعني الوالد — قلت خرج آنفاً قال فادفع اليه هذا الكتاب وقل لهُ جاء به الخضري

(١) كناية عن الحداثة وانه شيخ بالمنظر لا بالسن

ثم اغلقت الباب وانتحيت جانباً وفتحت المجلد فاذا هو جزء من التفسير الكبير للفخر الرازي كان قد استعارهُ من مكتبتنا وعرفت الشيخ من بوسئذٍ وكان استاذاً للعربية في مدرسة الصنائع يضع كتاب النحو والصرف مع المطرقة والمنشار والقدوم فيذهب شيء في شيء وكأنهُ لا يعلم شيئاً . وقلما كنا نذكرهُ في مدرستنا اذ كان لنا شيخ قليل ثقة من رجال الازهر غير ان الخضري كان لهُ موضع في كل مجلس وكان يداخل قومًا من الخاصة يعنون بالمسائل الاسلامية وفلسفتها وتقريبها من العامة والدهماء وباشارة من بعض هؤلاء وضع اول كتبهِ « نور اليقين في سيرة سيد المرسلين » ويكاد هذا الاسم يدل على وزن الاستاذ في اول عهدهِ وانهُ لا يزال وراء الحجمة الآتية من القرون الاخيرة لم يمضِ على وجه ولم يعرف بمذهب

***

ان الذي يريد ان يقول قولاً صحيحاً في هذا الفقيه العالم المؤرخ الاديب المربي يجب ان يرجع بتياره الى منبعهِ ليعرف مبلغ انبعاثهِ وقوة جريتهِ ومدّ عبابهِ فما كان الخضري شيئاً قبل ان يتعلق بمدار ذلك النجم الانساني العظيم الذي احدثهُ السماء الى الارض وسمي في أسمائها « محمد عبده » . لقد اخرجتهُ دار العلوم كما اخرجت الكثيرين ولكن دار علومهِ الكبرى كانت اخلاق الاستاذ الامام وشمائلهُ وآراءهُ وبلاغتهُ وهمة نفسهِ ألا إنهُ لا بد من رجل واحد يكون هو الواحد الذي يبدأ مئة العدو في كل عصر، وانت فكيف تأملت الخضري فاعلم انك بإزاء معنى من معاني الشيخ محمد عبده على فرق ما بين النفسين. بل انت من الخضري كأنك ترى الشيخ ماريًا في مظهر من مظاهر الزمن

كان يحضر دروس الشيخ ويختلف الى ناديهِ وينافلهُ بعض الرأي ويعارض معهُ الكتب التي كان يرجع الى الشيخ في تصحيحها او الاشراف على طبعها فنفذ الشيخ بعد السبيل الى الاستقرار فيها فهو من بعدهِ حريصٌ على وقتهِ مجدٌّ في عملهِ آخذ بالاخلاق الفاضلة مصلحٌ مُربٍّ غيور وكل ذلك في صمت وهيبة وهمة وإخلاص حقّ الاخلاص . وما ارى قوضى عصرنا هذا تولهم جديد وقديم وجريٌّ ورجعي وحر وجامد — النفس الكبيرة وحاجتهِ الى امام عظيم . ومتى اصبحنا في المربع وفي المستطيل وفي كل شكل الا ان تكون

الدائرة ، والذين رأوا طاغور الشاعر الهندي المتصوف حين نزل بمصر ورأوا سحره وتحويله كل جديد مدة ايام الى قديم واخراسه هذه الالسنة عن نقده ومعارضته وعن مساندة الحق طيشاً وزرقاً وضلالاً وتجديداً . . . . يستطيعون ان يدركوا ما اومأنا اليه ويتبينوا السر فيما نحن فيه ويتمثلوا ما كان للشيخ محمد عبده في عصره بل في خلق عصره

***

وانتهى الخضري الى مدرسة القضاء الشرعي فالف كتابهُ في الاصول اختصر فيه وهذّب وقارب فهو كتاب في هذا العلم لا كتاب هذا العلم واساتذة الاصول قوم آخرون لو انت رأيت منهم مثل الشيخ الراقي الكبير لرأيت البحر الذي يذهب في ساحله نصف طول الارض . وقد بعث الخضري على ذلك ان جماعة يومئذٍ كان منها صديقنا المرحوم حفني ناصف والشيخ المهدي وغيرهما اجتمعوا على ابداع نهضة في التأليف فذهب ثلاثة منهم بحصة الادب وفرغ الخضري للاصول اخبرني بذلك حفني بك رحمهُ الله.ثم لما اختار القائمون على الجامعة المصرية القديمة صديقنا العلاّمة المؤرخ جورجي زيدان لدروس التاريخ الاسلامي فيها طار الخبر في الامة بانهم اختاروا للقبلة . . . . وشعر الناس بمعنى المقدم قبل ان يتقدم شيء فاضطرت الجامعة الى ان تفيهُ وعهدت في الدرس الى الاستاذ الخضري فالقى دروسهُ التي جمعها في كتابهِ (تاريخ الامم الاسلامية) وقال في مقدمة هذا الكتاب : « ارجو أن اكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى وهي صعوبة استفادة التاريخ العربي من كتبهِ » تقول وعلى ان الشيخ احسن في كتابهِ وجاء بمادة غزيرة من فكرهِ ورأيهِ وبسط واختصر وباعد وقرّب فان كلتهُ هذه إما ان تكون اكبر من التاريخ او اكبر من كتابهِ

ورد في السنة الماضية على كتاب الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين وكان رده خطاباً أراد ان يحاضر بهِ طلبة الجامعة لانهُ استاذ استاذهم فكأنهُ اراد بجعل استاذهم هذا تلميذاً منهم وأبت عليهِ الجامعة ما أراد ولعلها فطنت الى هذا الغرض. ولما علم انهُ شرعت في طبع ردّي على الدكتور طه كتبني في استلحاق مقالهِ وجعلهِ ذيلاً في الكتاب وقدرناهُ يومئذٍ في نحو خمسين صفحة او دونها وقد سألتهُ ان يمحي منهُ ما كان في مقادير الرصاص و يقتصر على ما هو في وزن التنابل فقال « كلهُ قنابل » ثم اتسع كتابي وجاوز مقدارهُ الى الضعف فوسع هو ردهُ وزاد فيهِ وطبعهُ في قريب من ضعفهِ على حدة

دع كتابهُ المشهور (مهذب الاغاني) فهذا لا يقال انهُ الشيخ الفهُ بل التمهُ خمس عشرة سنة . واظن كل ذلك لا يذكر في جنب الكتاب الذي كان يعمل فيهِ اخيراً وهو كتاب « الادب المصري » اخبرني انهُ في جزئين ودعاني الى دارهِ لارى (المكتبة الخضرية) ولأطلع على هذا الكتاب فوعدتهُ ولم يُقدر لي . وقد حدثني انهُ معنيٌّ اشد العناية باستجماع الفروق التي يمتاز بها الادب المصري عن الادب الحجازي والشامي والعراقي والاندلسي وانهُ اصاب من ذلك اشياء متميزة منذ الدولة الطولونية يحق لمصر ان تقول فيها هذا أدبي . وكان يكتم خبر هذا الكتاب حتى ان صديقنا الاستاذ حافظ بك عوض صاحب جريدة كوكب الشرق اقترح عليهِ ان يكتب فصلاً في الشعراء المصريين وأدبهم يعقدهُ لكتاب حفلة تكريم شوقي بك ثم لقيهُ بعد ذلك فقال لهُ الشيخ ان البحث سائر على أحسن وجوهه

***

كان الخضري يفرح للقائي ويهش لي وكنت أتبين في وجهه اشعة روحهِ الصافية ولعلهُ كان يرى بي في نفسه ذلك الشيخ الذي اعطاني المجلد كما كنت ارى بهِ في نفسي ذلك التلميذ الذي اخذ المجلد منهُ ؟ على ان مرجع ذلك في الحق الى سعة صدرهِ وفسحة رأيهِ وبسطة ذرعهِ وسمو أدبهِ وصفاء نفسهِ فلا يحقد ولا يحسد ولا يجاوز قدرهُ ولا ينزل باحد عن قدرهِ ولا يدعي مالا يحسن ، وقد عرف قراء المقتطف مثلاً من اخلاقهِ هذه اوأكثرها حين انتقدهُ صديقنا الاستاذ عبد الرحيم محمود وتناول الجزء الاول من كتابهِ (مهذب الاغاني) وراح يتثقل لهُ بكلمود صخر . . . . فوسعهُ الشيخ وعفى بهِ ورد عليهِ في المقتطف وتمتهُ بالاستاذ الجهبذ وانتصف منهُ وانصفهُ معاً . ولقد اقترحت عليهِ مرة ان يضع كتاباً في حكمة التشريع الاسلامي وفلسفتهِ فقال لي « مُتْ قَدَّهُ » يعني ان العمل اكبر منهُ ولكن هذا نبههُ الى وضع كتابهِ في تاريخ التشريع الاسلامي

ولما اصدرت الجزء الاول من (تاريخ آداب العرب) في سنة ١٩١١ لم أهدهِ الى الشيخ فاشتراهُ وقرأهُ ثم لقيتهُ وسألتهُ رأيهُ فيهِ فقال (جدًّا كويس) فكان تقديم (جدًّا) تقريظاً و(كويس) تقريظاً آخر ، وهو يقول هذا على حين كان بعض اخوانهِ الشيوخ يكاد يموت غمًّا بهذا الكتاب وما كتب عنهُ وعلى حين كفى بعضهم مرتين في ترك هذا العمل ونفض يدي منهُ لانهُ زعم — عمل شاق بلا فائدة . . . .

وقد زرت الاستاذ الخضري في وزارة المعارف في السنة الماضية فبعد ان جلست الى جانبه نهض مرة ثانية وجعل يثبتني بقوة في الكرسي كأنهُ لم يطمئن بعدُ الى اني جلست ثم فاض بكلام كثير فكان فيما قالهُ « أنا الآن اعيش في غير زمني » وكأنما كان ينعى الى نفسه بهذه الكلمة من حيث لا يدري ولا ادري . وقال لي انهُ يجلس الى مكتبه في كل يوم ست ساعات يقرأ او يؤلف او ينسخ لان كل كتبه المخطوطة هو ناقلها وناسخها ومصححها وانهُ يتلو كل يوم اربعة اجزاء من القرآن الكريم قال ولا يعتريه البرد ولا مرض من امراضه لما اعتاد من رياضة صدره بهذه التلاوة وقال ان كل ما هو فيه انما هو من بركة القرآن

***

ولنمسك عند هذا الحد فان للذكرى غمزاً على القلب و بالجملة فقد كان رحمهُ الله عالماً كالكتّاب وكاتباً كالعلماء فهو من هؤلاء واولئك يلفّ الطبقتين ، وهو وحدهُ منزلة بين المنزلتين ، و بذلك تميّز . وظهر ، فانهُ في احدى الجهتين عقل جريء تمدّهُ رواية واسعة في علوم مختلفة فتراهُ يبعث من عقلهِ الحياة الى الماضي حتى كأنهُ لم يمضِ ، وهو في الجهة الاخرى علم مستفيض لا يقف عند حد الصحيفة او الكتاب بل لا يزال يلتمس لهُ عقلاً يخرجهُ و يتصرّف بهِ حتى يكبر عن ان يكون قديماً بحتاً فينتظم الحاضرَ الى ماضيهِ و يطلقها إطلاقاً واحداً . لم يكن الشيخ جديداً الاّ بالقديم ولا قديماً الاّ بالجديد فاننا لا نعرف قديماً محضاً ولا جديداً صرفاً ولا نقيم وزن احدهما الاّ بوزن من الآخر اذا اردنا بهما سنّة الحياة . وانت لن تجد حياً منقطعاً عما وراءهُ بل انت ترى الطبيعة قيدت كلّ حيّ جديد الى اصلين من القديم لا اصل واحد هما ابواهُ فمنهما يأتي ومنهما يستمد وبهما ابدا فهو وان كان على حدة ، و بعدُ فلو جاريت السخافة العصرية المشهورة لقلت ان المذهب القديم . . . قد انهدّ وكن من اركانهِ ، ونقص قنطار كتب من ميزانهِ ، ولكن هذه السخافة في رأيي كما ترى من جماعة إثاروا ان يطفئوا نجماً في السماء لانهُ قديم فاتفقوا على ذلك واجمعوهُ بينهم وفرغوا من امرهم واخبل بعضهم على بعض يسألون كيف يمشون العربات والمضخات التي تحمل الى السماء بضعة ابجر ليصبوها على النجم . . .

مصطفى صادق الرافعي